

كيف تصرف الإمام العز والإمام النووي

في ظروف شبيهة بظروفنا اليوم

عاش الإمام العز بن عبد السلام في ظروف عصيبة جداً، وفي فترة حالكة من تاريخ هذه الأمة، حيث حصل الاضطراب السياسي الهائل، والتدهور الاقتصادي المروع، وحصل التراجع الحضاري المدوّي، حتى عاش رضي الله عنه فترة شبيهة جداً بظروف أمتنا في زمننا هذا، فقد ولد سنة ٥٧٧هـ، وعاش في دمشق، حتى رأى تسليم السلطان الصالح إسماعيل لمدينة صيدا إلى أيدي الصليبيين، فأنكر عليه جداً، وخرج إلى مصر سنة ٦٣٩هـ، فرأى بعينه نزول الصليبيين إلى مصر، واحتلالهم للمنصورة ودمياط وغيرها من مدن مصر سنة ٦٤٦هـ، وعاش حتى رأى سقوط بغداد على أيدي التتار، سنة ٦٥٦هـ.

فما أشبه الليلة بالبارحة، وقد احتلت إسرائيل فلسطين وأعلنت قيامها رسمياً سنة ١٩٤٨م، واجتاحت أمريكا بغداد، كما دخلت دخولاً مُقَنَّعاً أو صريحاً إلى عدد من العواصم العربية والإسلامية، وسبق ذلك اتفاقيات سايكس بيكو سنة ١٩١٦م التي تم بموجبها تقسيم الهلال الخصيب أو بلاد الشام، وما صاحب ذلك كله من انهيار حضاري، وتراجع مهين، ملأ قلوب الأمة وأجياها بأساً، وإحباطاً، وصدمة، وفقداناً لليقين في كل شيء، وارتباكاً ذهنياً ومعرفياً وحضارياً لا مثيل له، فهي الأحداث بعينها، على نفس النحو الذي وقعت به في أيام العز بن عبد السلام، لكن اختلف حال الرجال في التعامل مع الحدث.

كما أن الإمام النووي أيضاً ولد سنة ٦٣١هـ، فلما دخل التتار إلى بغداد سنة ٦٥٦هـ كانت سنه خمساً وعشرين سنة، أي أنه شهد الكارثة وهو في عنفوان شبابه، وأشد أوقات تحصيله العلمي، وتكوينه المعرفي، وكان مقيماً في الشام، في الوقت الذي كان فيه العز بن عبد السلام في مصر قد بلغ التاسعة والسبعين من العمر، وعاش بعدها أربع سنوات أخرى، فكيف كان وقع هذه الأحداث الهائلة على هذين الإمامين.

لقد شغلني لفترة طويلة كيفية معايشة أولئك الأئمة المشهود بإمامتهم وجلالتهم لأحداث الانكسار والهزيمة والانهيار، كيف استوعبوا صدمات زمانهم، وكيف تجاوزوا صدمة المعرفة، وكيف خرجوا من حالة اليأس والإحباط والضياع والعدمية، وكيف كانوا نقاط تحول في تاريخ أمتهم، وكيف صمدوا في أوقات الانهيار العسكري والحضاري حتى نهضوا بالعلم، وتبحروا فيه، وأخرجوا المؤلفات الجليلة، التي لا نظير لها، والتي حفروا بها في تاريخ العلم، وكيف تصدوا في الوقت نفسه للشأن العام في زمانهم، وعرفوا الأمراء والسلاطين والأعيان، فما كانوا إلا مصدر بصيرة، وحكمة، وكانوا في غاية المقدرة على إدارة الأزمات.

وكان لهم نظر سديد في شؤون الاقتصاد، وترتيب مصادر الدخل لخزانة الدولة، ومتابعة الشؤون العسكرية، وكانوا في الدرجة العليا من الربانية والجلالة، حتى وقعت لهم الهيبة في القلوب، ووجدت الشعوب فيهم ملجأً وحصناً، حتى صار أولئك الأئمة رحمة وسكينة وراحة على الدول والأمم والشعوب، ونهضوا بها معرفياً وإدارياً، وحولوا مسارات الهزيمة إلى استيعاب وامتصاص للصدمة، واجتياز لها ولآثارها النفسية.

فحرصتُ لكل هذا على لفت نظر الخبراء والدارسين لتلك النماذج الرحيمة الحكيمة الشجاعة من الأئمة، بخلاف كثير من الناطقين باسم الدين في زماننا هذا، ممن كانوا على الخلق فتنة وغلظة وفضاظة، وحيرة وضياعاً، حتى تزلزل دين الله تعالى في قلوب عدد من الناس بسبب ما يرونه من تصرفات طائشة، تحركها نفوس مظلمة، ليس فيها أدنى بصيص من أنوار المعرفة بالله، ولا البصيرة بطباع الناس، ولا رصانة موارث النبوة، ولا الفهم الرفيع لمسالك نهوض الأمم، ولا التصدي للشأن العام بما يرفع عن الناس الحرج، ويريهم أنوار النبوة وكيف تستنير بها عقول أهل العلم.

لقد عاش الإمام العز بن عبد السلام في مصر، وكانت تربطه صحبة عميقة، وأخوة صافية بالإمام زكي الدين المنذري، إمام أهل مصر في علوم الحديث النبوي، وبالإمام أبي الحسن الشاذلي، شيخ الزاهدين، وإمام الأولياء في زمانه، والإمام محيي الدين بن سراقه، وابن دقيق العيد، والقراقي، وكانوا جميعاً ينزلون إلى خيام الجنود، ويشاركون في تدير موارد الدولة، فما زادتهم

الكوارث إلا بصيرة وحكمة وهداية، وما صنعت الكوارث من الإمام النووي إلا إماماً متبحراً في الفقه والحديث.

فيا معشر الشباب، كوّنوا مجموعات بحثية تدرس وتناقش كيفية تعامل أولئك الأكابر مع الأزمات والكوارث، افتتحووا عشرات الصفحات على "الفيس بوك" لمناقشة مناهج أولئك العباقرة في صناعة الحضارة، وبناء الدولة، وكيف اعتصروا علوم الشريعة فصنعوا نهضة، وكيف كانوا على الخلق رحمة وراحة.

